

دول المغرب الموحدة (التجربة الفاطمية)

الدولة الفاطمية بالمغرب (الدور المغربي)

لم يتمكن الشيعة من إقامة دولة لهم في المشرق الإسلامي فتوجهت أنظارهم تلقاء المغرب لإقامة كيان سياسي ذو عقيدة شيعية وقد نجحوا في ذلك . وقد كان تأسيسهم لدولتهم على مرحلتين

أ - مرحلة الإعداد :

كان اليمن مركزا للدعوة الشيعية لبعدها عن مركز الخلافة العباسية ومناعتها ، ومن أشهر دعايتها ابن حوشب الذي كان يرسل الدعاة إلى اليمامة وعمان والبحرين ومصر والمغرب ، وقد جاء اختيار المغرب لبعدها عن مركز الخلافة وتدمير البربر من سياسة الولاة العباسيين ومن حكم بعدهم .

أرسل الإمام جعفر الصادق إلى المغرب داعيتان هما أبو سفيان والحلواني وقال لهما << إن المغرب ارض بور فاذهبا فاحرثا حتى يجيء صاحب البذر >>¹ فحطاً رحالهما بالمغرب (ارض كتامة) وبدأت الدعوة الشيعية في الانتشار. فقد نزل أبو سفيان بقريّة زراعية في ناحية مرماجنة² ، وبنى مسجداً وتزوج واشترى أمةً وعبداً ، وكان له من الفضل والعبادة ما جعل أمره يشتهر ويتبعه كثير من المتشيعين ، أما الحلواني فقد وصل إلى سوجمار³ فبنى هو الآخر مسجداً وتزوج واشترى أمةً وعبداً فاشتهر أمره وتبعته في التشيع خلق من كتامة .

¹ تقي الدين المقريزي : انعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، ط 2 ، منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، 1996 ، ج 1 ، ص 41 : أما ابن الأثير فأورد الرواية على الشكل التالي << إن المغرب ارض بور فاذهبا فاحرصا حتى يجيء صاحب البذر >> ابن الأثير : المصدر السابق ، ج 6 ، ص 450 .

² بالفتح ثم السكون ، قرية بافريقية بينها وبين الأريس مرحلة . ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج 5 ، ص 109 .

³ جنوب شرق قسطلية .

بعد أن سمع ابن حوشب بوفاة الداعيتين أوفد أبا عبد الله الشيعي فخرج هذا الأخير من مكة حيث اصطحبه حجاج من كتامة إلى ارض المغرب ومنهم موسى بن حريث وأبي القاسم الورفجومي ومسعود بن عيسى .
وقد كان أبو عبد الله الشيعي داهية فصيح اللسان فدعاه الحجاج الكتاميون إلى القدوم إلى ارض المغرب ليُعلم الناس ، فجاء المغرب ووصلها منتصف ربيع الأول سنة 280 هـ ودخلت كتامة طاعته بعد أن حدّث الناس عن ظهور المهدي واستخدم السحر والطلاسم وغيرها ، ثم دخلت جموع من البربر طاعته مثل عجيسة وزاوة فقوي أمره واستفحل خطره واستقر بمدينة ايكجان (دار الهجرة)⁴ في بني عزيز حاليا التابعة لولاية سطيف الجزائرية.

ب- مرحلة الصدام المسلح وقيام الدولة :

في سنة 289 هـ بدأ أبو عبد الله الشيعي في صدامه العسكري مع دولة الأغالبة فزحف على طُبنة ثم هزم الأغالبة في معركة كينونة الحاسمة سنة 292 هـ ، والتي كانت باكورة التوسعات الفاطمية في بقية المناطق مثل سطيف وطُبنة وباغاية (من قرى الأوراس) وتبسة وقرطاجنة والقصرين وقسنطينة (295هـ) وفي سنة 296 هـ سقطت الأريس ثم فر زيادة الله إلى مصر فدخل أبو عبد الله الشيعي مدينة رقّادة في رجب 296 هـ حيث سقطت القيروان وسقط معها حكم بني الأغلب .

في هذه الأثناء قدم إلى المغرب عبيد الله المهدي الذي سجنه عامل بنو مدرار اليسع بن مدرار فلما سمع أبو عبد الله الشيعي بذلك سار إلى سجلماسة وفي طريقه استولى على تاهرت وقضى على مُلك الرستميين ثم وصل سجلماسة وحاصرها ثم دخلها وحرّر زعيمه عبيد الله المهدي وولده أبو القاسم وأقاموا هناك أربعين يوما ثم رحلوا إلى القيروان فوصلوها سنة 297 هـ وبايع أهلها عبيد الله المهدي البيعة العامة وتلقّب بالمهدي أمير المؤمنين وضُربت السكة باسمه .

⁴ منطقة جبلية بين سطيف وقسنطينة ، فيها قبائل كتامة ، وبها حصن حصين ومقل منيع ، وتمتد عمارة كتامة بهذه الأرض إلى أن تجاور ارض القل وبونة . الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق : إحسان عباس ، ط 1 ، مكتبة لبنان ، بيروت ، 1957 ، ص 71 .

لما استقامت الأمور لعبيد الله المهدي تخلص من داعيته أبي عبد الله الشيعي⁵ وكلف عروبة بن يوسف وأخاه حباسة بترصده وقتله ولما أجهز عليه قال له أبو عبد الله الشيعي لا تفعل يا ولدي فقال عروبة "إن الذي أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك" وكان ذلك في جمادي الآخرة سنة 298 هـ .

بعدها ثار أهل طرابلس من الاباضية سنة 300 هـ فأرسل إليهم عبيد الله المهدي ابنه أبا القاسم الذي اخمد الثورة بعد أن قطع المؤمن على أهلها ، كما أسس عبيد الله المهدي مدينة المهديّة (301 هـ) واتخذها عاصمة لملكه وقد حصنها وزودها بالمواجل (صهاريج) وبني بها القصور وبني عليها سورا لحماية ملكه ، كما تم في عهده اختطاط مدينة المسيلة وعهد إلى علي بن حمدون لبنائها وتحصينها وسميت بالمحمدية .

وقد حاول المهدي غزو مصر ثلاث (301-306-321 هـ) مرات بعد أن صعب عليه غزو الأندلس . حتى توفي عبيد الله المهدي سنة 322 هـ .

بعد وفاة عبيد الله المهدي خلفه القائم الذي واجه ثورات البربر وكانت أولها ثورة ابن طالوت بنواحي طرابلس لكنه فشل وقتل ، وثار في فاس بالمغرب الأقصى احمد بن بكر بن أبي سهل الجذامي فلحقته جيوش الفاطميين سنة 323 هـ وقبضت عليه غير أن اكبر ثورة زلزلت عرش الفاطميين هي ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي الملقب بصاحب الحمار⁶ .

وُلد أبو يزيد بالسودان من جارية هوارية ونشأ بتوزر ثم احتك بالنكارية أتباع ابن فندين ثم علّم الصبيان القران في تاهرت وأخذ يدعو إلى تكفير الشيعة واستباحة أموالهم ودمائهم ووجد من يتجاوب مع فكره ثم رحل إلى الأوراس وتبعته أمم من البربر وتلقب بشيخ المؤمنين وجاهر بعدائه للفاطميين سنة 332 هـ ودخل افريقية حتى اضطر الخليفة القائم إلى الفرار من رقّادة وتوجه إلى المهديّة ، ثم

⁵ حول التبريرات التي استند إليها المعز لدين الله الفاطمي في مقتل أبي عبد الله الشيعي راجع . القاضي النعمان : المجالس والمسائرات ، تحقيق : الحبيب الفقي وآخرون ، دار المنتظر ، بيروت ، 1996 ، ص 183 وما بعدها .

⁶ ويسميه الداعي إدريس عماد الدين (ت 872 هـ / 1488 م) الأعور والدجال والمارق . الداعي الداعي إدريس عماد الدين : المصدر السابق ، ص 264 .

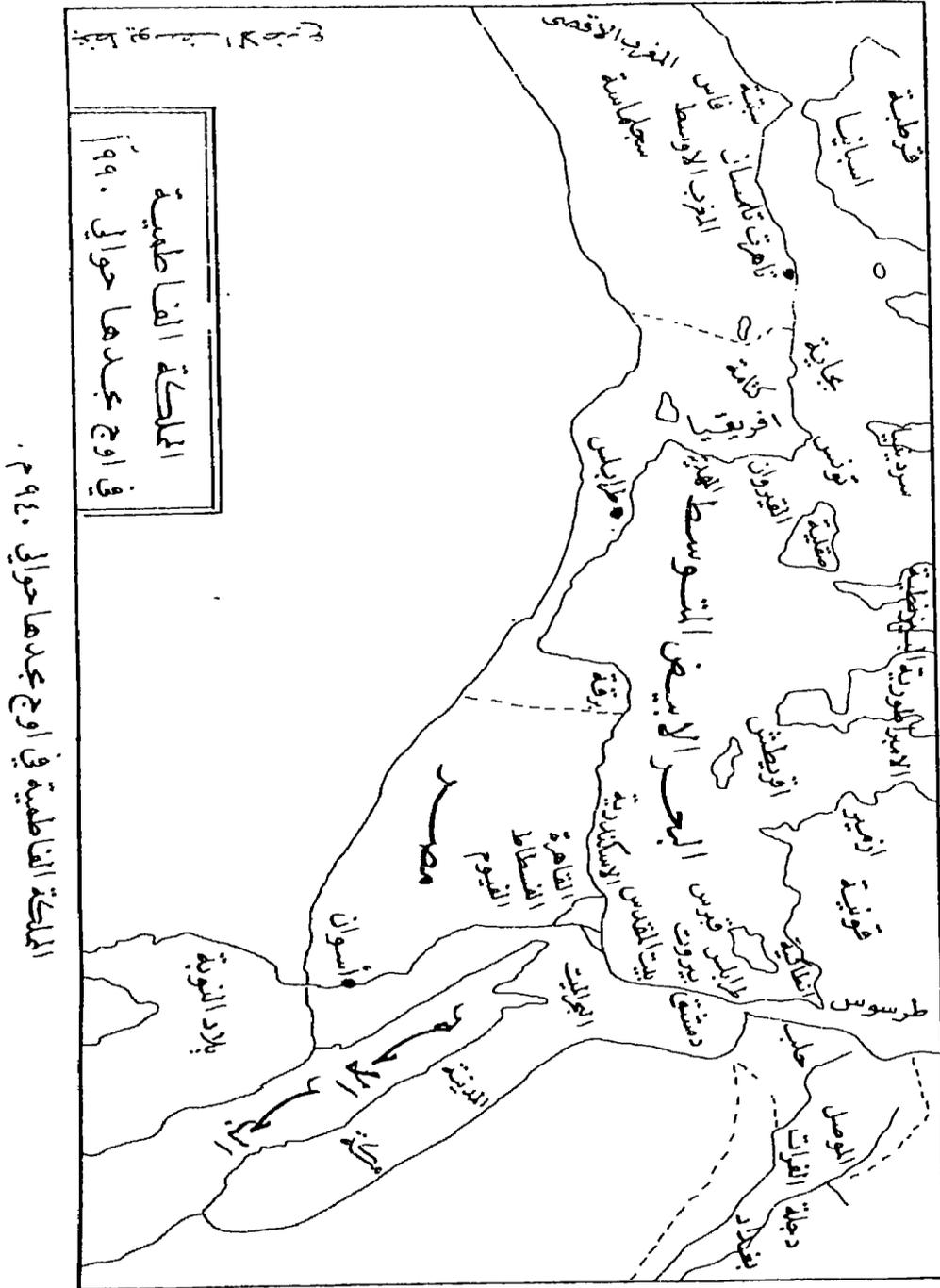
حاصرت جيوش أبي يزيد باغاية في 333 هـ ثم فتح تبسة ومجانة واستولى على مرماجنة فأهداه رجل منها حمارا أشهباً فلُقّب بصاحب الحمار ، ثم استولى على الأربس ثم افتتح سببية ثم دخل باجة فقتل أطفالها وسبى نساءها ثم دخل تونس فالقيروان غير أنه هذه المرة انهزمت جيوش أبي يزيد أمام جيوش الفاطميين بقيادة بشرى .

بعد هذه الهزيمة اغتاز أبو يزيد واستولى على رقّادة وعاث فيها فسادا 333 هـ وحرّض أهلها على قتال الفاطميين ثم استولى على سوسة وتوجه إلى معقل الفاطميين بالمهدية . عندها استنجد القائم بزيري بن مناد الصنهاجي قائد قبيلة صنهاجة فدارت الكفة لصالحهم وبدأت الهزائم تلاحق أبا يزيد وعجز عن اقتحام المهديّة عدة مرات ومات خلق كثير من عسكره ، ولما طال الحصار على المهديّة أكل أهلها الدواب والميتة ، ثم انضم أهل القيروان إلى الفاطميين وفي هذه الأثناء توفي القائم بالله وخلفه ابنه أبو الطاهر إسماعيل الملقب بالمنصور سنة 334 هـ ، وأبو يزيد لا يزال يحاصر سوسة لكن أهلها خرجوا لقتاله رفقة المنصور بعد أن لحقتهم المؤن وهزموا أبا يزيد ففر إلى القيروان فمنعه أهلها من الدخول إليها ، ولحقه المنصور هناك وتبادل الفريقان النصر والهزيمة حتى حلت سنة 335 هـ حيث انتصر المنصور نصرا ساحقا في شهر محرم وقتل 10.000 من أتباع أبي يزيد . تعرف هذه المعركة التي مُني فيها أبا يزيد بهزيمة نكراء بواقعة يوم الجمعة ، حيث فرّ بعدها إلى باغاية فمنعه أهلها من الدخول إليها فلحقه المنصور هناك وتتبع جيوش أبي يزيد الهاربة من مكان إلى مكان حتى وصل المسيلة فلحقه المنصور ، فتوجه إلى بلاد السودان فرفضه أهلها فعاد إلى جبال كتامة وعجيسة حيث انهزم هناك وهو مُثخن بالجراح في سنة 336 هـ ، وقُبض عليه فأمر المنصور بسلخ جلده وحشوه تبنا وقد احتفل المنصور بنصره ببناء مدينة صبرة المعروفة بالمنصورية (بجوار القيروان) سنة 337 هـ ثم سكنها وعمرها .

في سنة 34 تولى الحكم المعز لدين الله الفاطمي وقد حاول المغرب الأقصى الخروج عن طاعة الفاطميين فأرسلوا إليه جوهر الصقلي ومعه جعفر بن علي صاحب المسيلة وزيري بن مناد (الذي بنى أشير سنة 324 هـ) وتمكنوا من إعادته

إلى سلطان الفاطميين سنة 348 هـ وبذلك صار المغرب كله تحت راية الفواطم العبيديين .

بعد ذلك عزم الفاطميون على غزو مصر ، بعد ضعف كافور الإخشيدي في تحسين أوضاع المصريين وحدوث فيضان النيل وانتشر الغلاء ولم تستطع الدولة العباسية من احتواء مصر فصار الجو ممهدا للفاطميين وبدؤوا بغزوها سنة 358 هـ بقيادة جوهر الصقلي فدخل الإسكندرية ثم دخل الفسطاط وهزم الإخشيديين في شعبان 358 هـ واختط القاهرة وشرع في بناء الأزهر وبذلك تهيأ المعز لدين الله ورحل فيما بعد إلى عاصمته الجديدة مستخلفا على المغرب آل زيري الذين قدموا له خدمات جليلة. وبذلك انتقل الحكم الفاطمي إلى مصر منهيًا مرحلته المغربية ومستهلًا لمرحلته المشرقية .



خريطة رقم 3: الفاطميون في أقصى توسعاتهم في بلاد المغرب⁷.

⁷ الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 115.